مع الأخذ بعين الاعتبار الزمان والمكان والوسط الاجتماعي وكل ذلك مصور على أتم وجه في هذه الآيات .

فالحبكة في هذه القصة قائمة على التسلسل والتطور والتنامي والحوار الموجز المقتضب.

سابعاً : وتميزت القصة القرآنية عن غيرها من القصص الفني وفقاً للغرض الديني بعدة مميزات منها:

١ـ عرض القصة بالقدر الذي يفي بالهدف منها .

٢ ـ تكرارها في المواقف التي تتطلب التكرار .

٣ـ وذكر المقصود منها على شكل توجيهات دينية في سياق القصة أو في مقدمتها أو في نهايتها ، ومع هذا برزت في القصة القرآنية مقومات القصة بمفهومها الفني وتجلت فيها جمالياتها في نسق رفيع يعلو على فعل البشر جميعاً .

قصة أهل الكهف في القرآن الكريم .

تتميز قصة أهل الكهف في القرآن الكريم بعدة مميزات منها أن هذه القصة لم ترد إلا مرة واحدة ثم أنها جاءت في سياق قصص عديدة إذ أتت بعدها قصة الجنتين، وإشارة إلى قصة آدم وإبليس، ثم تجيء بعد ذلك قصة موسى والعبد الصالح ثم قصة ذي القرنين.

ومن الأهداف الأساسية التي رمت إليها هذه القصة تصحيح منهج الفكر والنظر وضرورة التحقق من القول والإتيان بالبرهان، فلا ينبغي أن يتحدث الإنسان فيما لا يعلم كذلك تصحيح القيم بميزان العقيدة حيث يبرز الإيمان والعمل الصالح كمصدر أساسي لهذه القيم في حين تبهت القيم الدنيوية الأخرى وتضمحل، وكل ما في الأرض من زينة إنما هو نوع من الابتلاء والاختبار [١] .

ومما تتميز به هذه القصة أنها صورت لنا نموذجاً إنسانياً جماعياً، حتى الحوار يتم

(١)راجع : سيد قطب ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، ط ٥ سنة ١٩٧٧م صـ ٢٢٥٦ وما بعدها .

عن طريق الإشارة إلى ضمير الجمع، فالقرآن الكريم يتعامل مع الشخصيات في هذه القصة كنموذج جماعي ذي صبغة شمولية إذ تصور شريحة مؤمنة فرت بدينها ونأت عن الدنيا بما فيها من أجل الفوز برضوان الله، وهي تصور نمطاً متفرداً من السلوك الذي تحدو رأيه طاقة إيمانية هائلة ، وسلوكهم هذا ضرب من ضروب الهجرة وليس نمطاً سلبياً متمثّلاً في الفرار هروباً من التبعات والمسؤوليات.

من هنا كانت السمة الواقعية التي تأخذ بعين الاعتبار ظروف الواقع ومعطياته من أهم الملامح التي صبغت المنهج القرآني في التعامل مع النماذج البشرية ، وتبرز لوناً من ألوان التكريم إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يطلع هؤلاء الفتية على ثمار صبرهم وإيمانهم وغلبة دينهم ونصره وتبدل الأحوال، ثم أكرمهم بأن توفاهم الله سبحانه وتعالى مشيراً إلى صعوبة توافقهم مع الأجيال التي لحقت بهم وهذا مظهر آخر من مظاهر الواقعية الإسلامية منهاجاً ورؤية، كذلك فإن صورة البعث تتمثل في هذه القصة كآية من آيات الله العظمى وكركن أساسي في العقيدة الإسلامية . واختلاف الناس حولهم يوميء إلى طبائع البشر وتمايز هذه الطبائع واختلاف أنماط التفكير لديهم.

ويتجلي المنهج القرآني الفريد في طرائق القص فيعتمد بشكل أساسي على التشكيل والتمثيل الحسي، وهو ما أسماه سيد قطب التصوير ،وقد لجأت إلى استبدال المصطلح السابق به لأن لفظة التصوير عامة لا تبرز خصوصية هذا المنهج، أما التشكيل فهو مصطلح فني يمس الجانب الحسي ويتلبس به، والتشكيل يتجلى في عدة ظواهر :

أولاً : إبراز الملامح المكانية مشمولة بحركة الزمن، وهذا الملمح التشكيلي الذي يتجلى في التأليف بين عناصر المشهد من الأشياء والأحياء محافظاً على النسب والعلاقات مبرزاً لها في أشكالها المتعددة حسياً ونفسياً يتجلى في المشهد المعجز .

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تزاور عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وإذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ .

مشهد متماسك حافل بالحركة والحياة بعناصره المادية التي شكلت بنية حية ، ثم

ما ألقاه هذا المشهد من ظلال نفسية رهيفة تبرز ما يخالج المشاهد لها من إحساس بالحركة ﴿ **وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ** ﴾ .

ويتجلى أيضاً في حركة الألفاظ وصياغة العبارات ، أما الألفاظ فتتآزر فيها العناصر الصوتية والعناصر الدلالية «تزاور» فيها إيقاع الحركة البطيئة التي تتمثل في تتابع الألفاظ، ثم المعاني المختلفة الازورار بمعنى الميل والابتعاد، والزيارة التي توحي بالإقامة المؤقتة وما إلى ذلك من إشعاعات دلالية متعددة، أضف إلى ذلك عنصر التشخيص الذي حفلت به الصورة ، وتنوع الاتجاهات على شكل منتظم ومتضاد في (ذات اليمين وذات الشمال) ، ومن ملامح هذه الحركة المدروسة تكرار أداة الشرط «إذا» التي توميء إلى التراتب في حركة الفعل وهو معنى متضمن في الشرطية ، وتوحي بمعنى الظرفية المستقبلية، وفي هذا المعنى تتجلى حركة الزمن بين الماضي والمستقبل . ناهيك عما في معنى ومبنى كلمة تقرض من ظلال وإيحاء، ففي القرض حسم وخطف يصور حركة الغروب، وكذلك صيغ الجمع (أيقاظ ورقود) وهي توميء بظلالها وتقابلها إلى قمة التنبه وذروة السكون ، والانتقال ما بينهما فيه صدمة الدهشة وبغتة المفاجأة مما يشحن المشهد بحركة زاخرة ، كذلك فإن الدقة المتناهية في استخدام الكلمات في موضعها يتجلى في صورته المعجزة من خلال هذا النسق المحكم الذي يتساوى فيه الإيقاع منساباً مفضياً إلى لحظة عميقة من لحظات الذهول والتوتر ﴿ **لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً** ﴾ .

ثانياً : التشكيل الصياغي والإيقاعي المتضافر في بنية لفظية مخصوصة وقد أشرت إلى بعض تعينات هذا التشكيل فيما سبق في اللوحة المشهدية التي استشهدت بها، في هذه القصة خصائص أسلوبية تجد بعض تجلياتها في إحدى تقنيات القصة الحديثة المعاصرة، فهي قائمة على السرد المحكم الذي يتضمن في سياقه ألواناً من الحركة تخرج به عن رتابة السرد التقليدي، وذلك بتصور سؤال محذوف جاء قبل أم، وباستخدام إذا الظرفية ،ثم المراوحة بين الحوار والقص في متن سردي واحد، والحوار المباشر والضمني الذي يقترب من الإدراك المتمثل هو نوع من الأساليب الحديثة في توظيف

القصة ، فالحوار ذو طبيعة خاصة، كذلك فإن أسلوب الدعاء المتضمن في الحوار ينسجم تماماً مع السمة الأسلوبية السالفة الذكر، كذلك فإن الحركة تتفق من خلال طراز فريد من الحوار، يقوم أحد طرفيه على الدعاء والثاني على الاستجابة الفعلية المتضمنة في إطار السرد: إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ﴿ **رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا** ﴾ .

ويعمد أسلوب القص في هذه الصورة إلى تنويع مصادر الرواية من خلال الالتفات والحوار، فالحوار يمدنا بتطورات الموقف جنباً إلى جنب مع المصدر الثاني من مصادر الرواية، ويتضح ذلك في قولة أصحاب الكهف : ﴿**هَٰؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً** ﴾ إلى آخر الآية الكريمة . كذلك فإن التوجه بالخطاب إلى متلق متعين يثبت نوعاً من اليقظة في ذهن المتلقي لتقرير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة فلو تحدى بإظهار بطلان مثلا من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ،لم يورث ذلك شكا و إنكاراً ، فإني إذا علمتُ أنَ العشرة أكثر من الثلاثة وقال لي قائل : لا ، بل الثلاثة أكثر بدليل أني أقلب هذا العصا ثعباناً، وقلبها ،و شاهدت ذلك منه ، لم أشك بسببه في معرفتي ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ، فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت أن كلَّ مالا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه لهذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني [1] .

---

(١) راجع : في ظلال القرآن ، والتصوير الفني في القرآن الكريم (سبقت الإشارة إليهما) .
ومن المراجع المهمة : الدكتور فضل حسن عباس ، القصص القرآني (إيحاؤه ونفحاته) دار الفرقان ، عمان ، ط ١٩٧٨ . .

٢ـ نموذج من الحديث الشريف

والخطابة في عصر صدر الإسلام

خطبة الوداع * [١]

« أيها الناس : اسمعوا قولي ، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دمُ ابن ربيعة بن الحارث، وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله » .

المعاني الجزئية :

كل شيء من أمر الجاهلية : كل ما كان من سنن القوم وتشريعاتهم ومعاملاتهم .
موضوع : مرفوع ملغي غير صالح للعمل بموجبه .

المعنى العام :

في هذا الجزء من خطبة الوداع عمد الرسول ﷺ إلى تقويض الدعائم التي قامت عليها حياة المجتمع الجاهلي، فأبطل عليه السلام الجاهلية من أساسها فحرّم استباحة الدماء والأموال وهو ما كان شائعاً من خلال الغزو والسلب والنهب، وأتبع ذلك عليه السلام، بإلغاء الأعراف السائدة في الجاهلية كلها كالمطالبة بالثأر، والربا، ولم يكتف بالإشارة العامة بل بدأ بما يمس مصالح أقرب الناس إليه نسباً كالعباس فألغى ماله من ربا على الناس، وأجبر قومه على التنازل عن ثاراتهم بادئاً بابن ربيعة بن الحارث .

* اعتمدنا في نقل هذا النص على صحيح مسلم ، وأضيفت إليها زيادات جاءت في البخاري هي « وستلقون ربكم » إلى « من سمعه » وأضيفت إليها زيادات بسيطة أخرى وردت في ابن اسحاق وطبقات ابن سعد وغيرهما .و قد نقلنا هذا النص عن الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه (فقه السيرة) ، دار الفكر ، ط ٨ سنة ١٩٨٠م من ص ٤٣٨ إلى ص ٤٥٠ وقمنا بتحقيقه على الوجه المذكور .

خصائص الأسلوب :

من أبرز الخصائص الأسلوبية التى تميز بها هذا النص النداء، حيث المنادى هم الناس على إطلاقهم فلم يخصص فئة دون أخرى، ثم الأمر القاطع الحاسم، ثم التوكيد (بإن) التي تكررت في أول كل جملة في تقرير بات جازماً، فهو صلى الله عليه وسلم يدرك أنه إنما يرسي دعائم قيم جديدة ومجتمع جديد، والاستقصاء الشامل أمر لا مندوحة عنه، لذا كان تكرار الأحكام في ألفاظها المؤكدة كقوله « موضوع وموضوعة وأضع » . فالتكرار هنا للتقرير، وكذلك تكرار اسم الإشارة (هذا) عدة مرات واستخدام لفظة (كله) من ألفاظ التوكيد، « وكل شيء » الدالة على الاستغراق، ويدخل في هذا الإطلاق التشبيه الذي يقصد به التوضيح والتوكيد (كحرمة يومكم هذا ... إلخ) .

[٢]

« أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيُها الناسُ، إن النسيءَ زيادةٌ في الكُفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدّةَ ما حَرّم الله فيحلوا ما حرّم الله ، ويحرموا ما أحلّ الله وإن الزمّانَ قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدةِ وذو الحجةِ والمحرمُ ومُضرُ الذي بين جمادى وشعبان » .

المعاني الجزئية :

النسيُء : التأجيل ، والمقصود تأخير الأشهر الحرم والعبث بمواقيتها .

يواطئوا : واطأ بمعنى وافق أي ليوافق ما حرم الله ، مُضَر : رجب .

المعنى العام :

يحذّر الرسولُ ﷺ الناس من الوقوع في أسر الشيطان عَبر غوايته لهم في التافه من الأمور، وبعد أن يئس يأساً تاماً من تنصيب نفسه إلهاً يُعبد

ثم أشار إلى تلاعب العرب في الجاهلية بالأشهر الحرم ، فقد كانوا يجعلون حجهم كل عامين في شهرٍ معيّن من السنة، فيحجّون في ذي الحجة عامينِ، ثم يحجون في المحرم عامين وهكذا ..، فلما حج رسول الله ﷺ وافق حجه شهر ذي الحجة، وأعلن عليه السلام أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض أي رجع الأمر إلى نصابه فلا يجوز التلاعب بعد ذلك تقديماً وتأخيراً ،ولاحج بعد اليوم إلا في هذا الزمن الذي استقر اسمه (ذي الحجّة) .

وذكر بعضهم أن المشركين كانوا يحسبون السّنة اثني عشر شهراً وخمسة عشر يوماً فكان الحج في رمضان وفي شوال وذي القعدة .. وفي كل شهر من شهور السنة .. وذلك بحكم استدارة الشهر بسبب زيادة الخمسة عشر يوماً . ولقد كان حج أبي بكر في السنة التاسعة من الهجرة واقعاً في شهر ذي القعدة بسبب ذلك ، فلما كان العام التالي وافق حجُّه ذا الحجة في العاشر منه وطابق الأهلة (وذلك عام حجة الوداع)، وأعلن عليه السلام نسخ الحساب القديم للزمن وأن السنة تعتبر منذ ذلك الحين اثني عشر شهراً فقط. فالمقصود بقوله ﷺ (إن الزمان استدار ...) أي زمان الحج عاد إلى وقته الأصلي.

خصائص الأسلوب : أهم ما تتميز به هذه الفقرة (التقرير) حيث إن الرسول ﷺ يقرر عدة حقائق و مباديء خاصة بالشيطان وبالمشركين، وباستخدام (أسلوب التفصيل)، ويستعمل (أدوات التعليل) و(الاستدراك) مستغرقاً دقائق المعنى، (ويزاوج) بين الجمل التي تتقابل فيها المفردات (فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله) ثم (أسلوب التشبيه) الذي يقصد به البيان والتوضيح (استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض) .

[٣]

« اتقوا الله في النّساء، فإنكم إنما أخذتُموهُنّ بأمان الله ، واستحللتم فروجَهُنّ بكلمة الله ، إن لكُم عليهنّ حقاً : لَكُم عليهنّ أن لا يُوطئنَ فُرُشَكُم أحداً تكرهونَهُ، فإن فعلَنْ ذلك فاضربوهُنّ ضرباً غيرَ مُبرِّح ، ولهنّ عليكمْ رزقُهُن وكسوتُهُنّ بالمعروف ».

المعاني الجزئية :

يوطئن : يجعلن أحداً يجلس على فرشكم، والمقصود ألا يستضفن أحداً، ضرباً غير مبرِّح : أى بلا مبالغة أو قسو ة .

المعنى الإجمالي :

خصّ الرسول ﷺ النساء بهذه الفقرة من خطبته فأوصى المسلمين بهنّ خيراً، فهنّ أمانة ووديعة. وقد حدد الحقوق والواجبات ، فمن واجبهن ألا يستضفن في بيوتهن أحداً ممن يكرههم أزواجهن، وإذا تجاوزن ذلك فمن حق الأزواج أن يضربوهن بلا قسوة، أما حقوقهن فتتمثل في إكرامهن وإطعامهن وكسوتهن، وبذلك أكدّ عليه الصلاة والسلام حقوق المرأة وكرامتها ليبطل نظرة الجاهلية إليها كأداة للمتعة والتسلية فحسب .

خصائص الأسلوب:

الأمر الذي بدأ به الرسول ﷺ لا يحتمل التأويل والتفسير فالقضية خطيرة والقول فيها لا يحتمل إلا القطع، والتقوى معنى جامع رادع فيه استشعار لخطورة الموقف، فقد قرن تقوى الله في النساء ليدل على مكانتهن وليحذر من مغبة ظلمهن وامتهانهن، وساق الكلام مؤكداً بأدوات عدة (فإنكم إنما) (بالقصر والحصر وتقـــديم الجار والمجـرور) ، و(كرر لفظ الجلالة) ليثير المهابة في النفوس، و جاءت الجمل اسمية دالة على الثبات فيما يتعلق بضمان حقوق المرأة (إن لكم عليهن حقاً ،ولهن عليكم حقا) وعلق العقاب (بالشرط) حتى يكون ذلك محصوراً في موقف محدد، وجاءت (الصفة) لتحدد نوع الضرب دون إفراط، فإذا كان (الأمر) في أول هذه الفقرة على (إطلاق) فإنه في آخرها جاء مقيداً لأنه متعلق بإيذاء المرأة، فالتقوى جاءت مطلقة لتتسع لكل ضروب البر، ولتستوعب كل أبعاد العلاقة بالمرأة، أما الضرب فقد جاء مقيداً بصفة (غير مبرِّح) ضماناً للعدالة في العقاب وحفاظاً على حقوق المرأة، وصوناً لكرامتها ومشاعرها.

[٤]

« فاعقلوا أيُّها الناسُ قولي فإني قَدْ بلّغت ، وقد تركتُ فيكُم مالَن تضلوا بعدَه إن اعتصمتم به : كتاب الله وسنة رسوله .

« يا أيُّها الناسُ اسمَعوا وأطيعوا وإن أمّر عليكُم عبدٌ حَبَشيٌّ مُجدّعٌ ما أقام فيكم كتاب الله » .

المعاني الجزئية :

اعقلوا : من العقل والمراد أدركوا وافهموا . اعتصمتم : تمسكتم . مُجدّع : مقطوع الأنف أو مشوّه الملامح .

المعنى الإجمالي :

في هذه الفقرة يحرص الرسول ﷺ على أن يدعو الناس إلى الفهم والبصيرة ليدركوا ما دعاهم إليه ، وأن عليهم التمسك بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

وأن من واجبهم السمع والطاعة لولي الأمر ولو كان عبداً أسود اللون مشوها مادام يحكمهم بالقرآن الكريم .

خصائص الأسلوب :

تكرار (النداء الشامل العام)، استخدام كلمة (اعقلوا) مشتقة من العقل تأكيداً على أن الرسول ﷺ لا يفرض عليهم شيئاً لا يتطابق مع عقولهم، كذلك فإن حشد أدوات التوكيد في (فإني قد بلغت) أمر لافت للانتباه إلى أهمية الوصية، ثم (الاستدراك بأسلوب الشرط) (إن اعتصمتم به) هذه الجملة المعترضة فيها تنبيه إلى حقيقة مهمة . ثم استخدام (أسلوب التوضيح بعد الإبهام) وهو من أساليب الإطناب موظف لغرض التشويق وشحن حالة الانتظار، فالسامع لقوله عليه السلام (مالن تضلوا) يظل يقظاً ليسمع ما يوضح الإبهام في الاسم الموصول . (وتتابع الوصف) في قوله (عبد حبشي مجدّع) تأكيد على ضرورة الطاعة مهما كان الأمر، فالاستقصاء في ذلك

مقصود به استغراق الصفات التي قد تكون مانعةً للطاعة .

ويلاحظ أن الرسول ﷺ في هذا الجزء من الخطبة يلح إلحاحاً شديداً على ضرورة الوعي بما يقول، من هنا كانت الأساليب الأمرية هي الطاغية ، وتكرار النداء كما أسلفنا للتنبيه المستمر ، وهذا مما يعطي إحساساً بأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يلقي خطبته الأخيرة لذا يعمد إلى التكرار والتأكيد والتقرير والاستدراك .

[٥]

« أرقاءَكم أرقاءَكم .. أطْعمُوهم مما تأكُلون واكسوهُم مما تَلْبسَون وإن جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عبادَ الله ولا تعذّبوهم .

أيّها الناسُ اسمعوا قَوْلي واعقلوه، تَعْلَمُنّ أنّ كلّ مُسلم أخٌ للمسلم، وأنّ المسلمينَ إخوةٌ، فلا يحلُّ لامرىء من أخيه إلا ما أعطاهُ عن طيبِ نفس منه، فلا تظلمُنّ أنْفُسكُم، اللّهمّ هلْ بلّغْت؟ وستلْقَوْنَ ربّكُم فلا تَرْجعوا بعدى ضُلّالاً يضربُ بعَضكمُ رقابَ بَعضٍ، ألا ليُبلّغْ الشاهدُ الغائبَ، فلعلّ بعضَ مَن يبلّغُه أن يكونَ أوعى لهُ من بعضٍ من سمعَهُ، وأنتم تُسألونَ عني فما أنتم قائلون؟

قالوا : نشهدُ أنّكَ قد بلّغتَ وأدّيتَ ونصحْتَ . فقال بإصبعه السبابةِ يَرْفَعُها إلى السماءِ، وينكتُها إلى الناسِ : اللّهُم اَشْهدَ (ثلاثَ مراتٍ) .

المعاني الجزئية :

الأرقّاء : العبيد . ضُلّالاً : صيغة مبالغة من الضلال، أى تكثرون من البعد عن الحق ، يضرب بعضكم رقاب بعض : يقتل بعضكم بعضاً . أوعى : أكثر إدراكاً وفهما . ينكت إلى الناس : المقصود يشير، ونكت أصل المعنى فيها : ضرب بإصبعه أو بقضيب الأرض في حالة الاستغراق في التفكير .

المعنى الإجمالي :

يوصي الرسول عليه الصلاة والسلام الناس بعبيدهم ، أن يساووهم بأنفسهم في

المأكل والمشرب والملبس ، وينهاهم عن التنكيل بهم إذا ما اقترفوا ذنباً ، وإذا كانوا غير قادرين على العفو عنهم يأمرهم أن يبيعوهم .

وقد كان الحديث عن الأرقّاءَ مُدخلاً للحديث عن الإخُوّة في الإسلام، فيحرّم الاعتداء على الأموال والأنفس ويحذر من الردة إلى الضلالَة والفتنة والاقتتال ويطلب عليه الصلاة والسلام منهم أن يبادروا إلى إبلاغ حديثه هذا إلى الغائبين، فلعل منهم من يكون أكثر إدراكاً وفهماً له من الحاضرين . ثم يسألهم عليه الصلاة والسلام، يريد الاطمئنان على أنه بلّغ وأدّى الأمانة ونصح يجيبونه مؤكدين ذلك، ولكنه لا يكتفي ﷺ بذلك بل يشير إشارة حسية بإصبعه مردداً (اللهم فاشهد) حتى يبريء ذمته .

خصائص الأسلوب : (بعد تكرير النداء) واستخدام التوكيد بنون التوكيد لفعل الأمر (تعلمنّ) يأتي بجملة من الجمل المسبوقة بالنهي يتخللها الاستفهام لدعم التوكيد، وكان قبل ذلك قد استفتح الفقرة بالتوكيد اللفظي (أرقاءكم أرقاءكم) متبوعاً بسلسة من الأوامر والنواهي، فأهم ما يميز هذه الفقرة أنها ـ في جملتها ـ تحتفل بالأساليب الطلبية التي يقصد بها إثارة الاهتمام والانتباه ،ثم التكرار والاستقصاء (بلغت وأديت ونصحت) وقد سبق أن أشرنا إلى ما يوحي به هذا الحشد من التكرار والتوكيد والإلحاح على الأمر والنهي .

التحليل والخصائص الفنية

المعاني الرئيسة :

ورد في بعض الروايات لهذه الخطبة (في كتب التاريخ والسيرة) مقدمة مأثورة في خطب الرسول ﷺ وهي :

« الحمدُ لله نَحمَدُه ونستعينُه ونَستَغفرهُ ونتوبُ إليه ، ونعوذُ بالله من شرور أنفُسنا ومن سيئات أعمَالنا ، من يهد اللهُ فلا مضلَّ لَه ، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ لهَ و وأشهَدُ أنَ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَهُ ، وأنّ مُحمّداً عبدهُ ورسَوله . أوصيكُم عِبادَ الله بتقْوى اللهِ ، وأحُثكُم على طاعتِه وأستفتحُ بالذي هو خيرٌ » .

وهذه المقدمة سقطت من بعض المرويات في كتب الحديث الموثوقة التي آثرنا أن نأخذ بها في هذا النص المهم .و هي من تقاليد الخطبة الإسلامية التي تواترت إلى يومنا هذا، ففيها نفحة روحية وتأكيد للارتباط بالعقيدة الإسلامية والصدور عنها في الأقوال والأفعال، وتهيئة للأنفس والأذهان .

ثم يعرض الرسول عليه الصلاة والسلام في صلب الخطبة جملة من المباديء الأساسية، إذ يحس بدنو أجله فيتلبّث عند الحقائق الرئيسة التي يريدها أن تقر في وجدانات الناس وعقولهم ، وتأتي هذه الحقائق متسلسلة مترابطة يأخذ بعضها برقاب بعض، مشكّلةً الأساس القويم للمجتمع الإسلامي الجديد وهي :

أولاً ـ هدم القواعد القديمة التي تشكل الجانب السلبي للمجتمع الجاهلي كالغزو والقتل والسلب والنهب والربا .

ثانياً ـ التحذير من غواية الشيطان، ويعقب ذلك بذكر لون من ألوان التلاعب والخداع المألوف في الجاهلية كالعبث بنظام الشهور، وهو أمر يشكّل منفذاً للشيطان .

ثالثاً ـ تأكيد منزلة المرأة في الإسلام وضرورة إنصافها ، ويحدد حقوقها وواجباتها .

رابعاً ـ تقرير المصدرين الرئيسين من مصادر التشريع الإسلامي وهما الكتاب والسنة وترسيخ قاعدة الطاعة لولي الأمر كأساس للانضباط الاجتماعي والالتزام الإسلامي .

خامساً ـ تأكيد حقوق الأرقاء وإنسانيتهم ومساواتهم بأسيادهم والتحذير من اضطهادهم وظلمهم،و هذا إبراز لإنسانية هذا الدين العظيم .

سادساً ـ إرساء مبدأ الأخوة الإسلامية ، ورسم لحدود التعامل بين أفراد المجتمع ونفي لكل أسباب الظلم وسوء العشرة والاعتداء .

ومن الواضح أن الأفكار جاءت متسلسلة مترابطة، فقد بدأ بالهدم ثم أقام البناء وبعد التعميم عمد إلى التخصيص، فكانت المرأة مدار اهتمامه عليه الصلاة والسلام قدمها على حديثه عن طاعة ولي الأمر، ثم تلا ذلك بالحديث عن المستضعفين وهم الأرقاء إذ يدخلون هم والنساء في هذه الدائرة في ذلك العصر .

وقد ختم ﷺ قوله بخاتمة أراد أن يؤكد فيها أهمية هذه المبادىء وضرورة فهمها وإدراكها واستيعابها من الجميع .

الخصائص الأسلوبية :

وهذه الخطبة تمثل خصائص أسلوب الرسول ﷺ :

أولاً : لقد راعى الرسول ﷺ طبيعة التكوين النفسي للعرب فلائم بين طرائق الخطاب وأساليبه وبين خصائصهم التكوينية مستلهماً المنهج القرآني السديد في هذا المجال، فكان حازماً باتاً في تقريره وأوامره ونواهيه متكئاً على التوكيد الصارم بشتي الطرق، فاحتشدت الخطبة بالمؤكّدات المختلفة وأساليب الأمر والنهي والخبر الطلبي والإنكاري .

ثانياً : خلَتْ الخطبة من الإغراب والتعقيدات والاستكراه ، فهي تتسق مع البيان النبوي السلس الذي يهدف إلى التوضيح والتوجيه والإرشاد .

ثالثاً : لم يحتفل الرسول ﷺ بالسجع في هذه الخطبة ولا في غيرها فقد كان عليه السلام ينفر من السجع لأنه شاع في حديث الكهان .

رابعاً : عبارات الخطبة موجزة رصينة فيها كثير من جوامع الكلم، سمتها التركيز والتكثيف والإحكام ، وما ورد فيها من تفصيل واستدراك وتعليل جاء في موقعه الذي يستلزمه كما سبق أن أشرنا .

خامساً : راوح عليه الصلاة والسلام بين ألوان التعبير المختلفة : الجمل القصيرة والجمل الطويلة والإنشاء . كما جاء الإيقاع ناجماً عن تلك الروح التي سادت الخطبة فالألفاظ رشيقة والجمل متوازنة .

سادساً : تكاد الخطبة تخلو من ألوان الزخرف اللفظي والصور الخيالية إلا ما جاء منها للتوضيح والتفسير والبيان .